شعريـة الفضاء الانـعزالي وأثره النفسي في رواية الأيام

د/ ناصر بعداش

جامعة عبد الحفيظ بوالصّوف – ميلة – الجزائر –

ملخص :

يؤثر الانعزال على الأفراد وعلى نفسياتهم تأثيرا كبيرا، مما يؤدي إلى الانطوائية وحمل الكره للآخرين، وينتقل إلى شخصية الفرد المنعزل فيذيقها عذابات كبيرة تبقى مع الزمن، وفي هذه الدراسة نود الولوج إلى شخصية طه حسين من خلال روايته الأيام، ونرى أثر تلك الفضاءات الانعزالية التي كان يعيشها الروائي، مع التطرق إلى شعريتها وما توحي إليه من دلالات انعكست سلبا على هذه الشخصية، ومنه:

- ما هي الفضاءات الانعزالية؟ وكيف كانت آثرها على البطل؟
- هل أثرت هذه الفضاءات على شخصية طه حسين؟ وكيف كان تأثيرها؟
- كيف يصبح الفضاء الأليف موحشا في الرواية؟

الكلمات المفتاحية: الفضاء، الشعرية، الأليف، الانعزال.

Summary

The poetics of the isolationist space and its psychological impact on Al-Ayyam's novel::

Isolation greatly affects individuals and their psyche, which leads to introvertedness and hate of others, and it is transferred to the isolated individual's personality, and it is tasted by great torments that remain with time. The novelist lives it, with reference to her poetry and the connotations it implies, which reflected negatively on this character, including:

- What are isolationist spaces? How was its effect on the hero?
- Did these spaces affect the personality of Taha Hussein? How was its impact?
- How does Fashionable space become so lonely in the novel?

Key words: space, poetic, Fashionable, isolation.

1– الفـضاء و الانــعزالية :

يبدأ الإنسان وحيدا في هذه الحياة ، ثم ما يفتأ يكبر عبر المراحل التدريجية إلى أن يُكَوّنُ أسرة، وما يزال على هذه الحال حتى تصبح جماعات تجمعها أواصر القرابة، وبتطور الزمن تكبر لتصير مجتمعا تحكمه قوانين و أعراف يسطرها الإنسان لأجل غاية سامية ، وهي استمرارية الحياة البشرية، من هنا يتبن أن كل خروج عن الجماعة يعد بمثابة انعزال ترفضه الطبيعة البشرية، لأن معاناة الإنسان الأولى، وتجربته في الحياة لا تقبل مثل هذه التصرفات القديمة ، فالشخص بطبيعة الحال يكمل الأخر، والفرد لا تكتمل حياته إلا بمساندة ودعم الآخرين ، من هنا تنشأ الروابط الحميمية التي يتماسك بها المجتمع ، بها تتذلل الصعاب، ويتمكن الإنسان من بسط سيطرته على هذه الطبيعة القاسية، ويتمكن مع الآخرين لاسيما توفير أسباب العيش ، أو الضرب في فضاءات الطبيعة الواسعة، لأن << المكان جزء من البيئة و له دوره في تقاليد الناس و نظام السكن و العلاقات الاجتماعية والمناسبات ، وطريقتهم في المأكل و المشرب و الزينة ، لتميز مجتمعا ما عن مجتمع آخر، وينعكس ذلك مع الأيام على تراثهم وآدابهم >>[1]، وبالتالي نجد

[1] – حمادة تركي زعيتر : جماليات المكان في الشعر العباسي ، دار الرضوان ، عمان ، ط 1، 2013. ، ص 83.

أواصر المحبة و الصداقة تتجذر بين الناس، وتمتد الاحتياجات بينهم، حتى لا يمكن استغناء الواحد عن الآخر ، و بهذا يصبح للفضاء دور كبير في وعي الإنسان ، لأنه رمز الاستمرارية و مَدِّ جسور التواصل ، لذا عمل الإنسان منذ القديم على تشييد الأمكنة و الفضاءات التي تمكنه من العيش ، و تذلل الصعوبات أمامه ليحس بالأمن و الأمان، و لكن قد تتحول مثل هذه الفضاءات إلى موطن للعزلة والوحشة ، لأنه لا يوفر دواعي الأمن و الاستقرار، فكل الأحاسيس المرافقة للفضاء ، تنعكس إما سلبا ، وإما إيجابا على نفسية قاطنيها ، وتبث فيهم ذكرايات يكتب لها البقاء إن أمكن، ويكتب لها الفناء إن أرادت .

إن المتتبع لحركة السرد في رواية الأيام ليجد لهذا النوع من الفضاء انتشارا واسعا ، فنجده يمتد من مراحل الطفولة الأولى ، ويبقى في مسار أفقي تتابعي إلى مراحل متقدمة من حياة البطل ، إلى أن يصل إلى سن تنتهي فيها مراحل حياته المريرة ، فنجد البيت الذي هو مصدر الدفء والحمائية، له علاقة كبيرة بالبطل لأنه << من الواضح تماما إن البيت كيان مميز لدراسة ظاهرتية لقيم ألفة المكان من الداخل >>[1] ، لذا نجده يتحول مع البطل إلى فضاء الوحشة و العذاب ، خاصة إذا كساه اللون الأسود المزدوج ، سواد الليل و عذاباته ، وسواد الظلمة الكاسية للغرفة ، << و ذلك لأن البيت يمدنا بصور متفرقة ، وفي الوقت ذاته يمنحنا مجموعة متكاملة من الصور >>[2]، و هنا تجتمع الصور المتفرقة على البطل الصغير ،و تتكاثف إلى أن تصير مجموعة كاملة من الأخيلة ، ثم تتسرب إلى خياله البكر،و تصبح على شكل أشخاص تسد فضاء الألفة و تحوله إلى فَرَقٍ دائم ، تنعدم فيه مصادر الأمن و الأمان ، << و كان يخاف أشد الخوف أشخاصا يَتَمَثَّلُهَا قد وقفت على باب الحجرة فسدته سدا وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر ، وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة و الأصوات المنكرة ، إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم دون أن يدع بينه و بين الهواء منفذا أو ثغرة ...>>[3] ، انظر كيف يتحول الفضاء الأليف المتمثل في البيت إلى مكان موحش مخيف ، تتوفر فيه أسباب العزلة والوحدانية ، فيرتبط خيال البطل فيه بتوهمات تسيطر على ذهنه ، و تجتمع له المتناقضات ، فكيف استراح لهذا البيت لأول مرة ؟ وكيف له أن يتوهم في الأخير أنه غير آمن ، و لكن << لحل هذه المسألة لا يكفي أن نعتبر البيت " شيئا " بإمكاننا أن نصدر أحكامنا عليه ، ونكون أحلام اليقظة حوله >>[4] ، هنا

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، تر ، غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1984. ص 35.

[2] – المرجع نفسه : ص 35.

[3] – طه حسين : الأيام ، مركز الأهرام للترجمة و النشر ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ط1992،1، ص 12.

[4] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 35.

تجتمع أحلام اليقظة حول صاحبنا ، و تلتف حول هذا الفضاء محولة إياه إلى فضاء يمتلأ بالخوف و الفرق ، فلا يشعر فيه الفرد بأدنى شيء من الراحة والنوم، فلا يمتلك نفسه إلا و هو يتدثر في لحافه بشكل عجيب ، إلى أن تنسد منافذ الهواء دونه، و هو بعمله هذا يحاول الهروب من فضاء البيت ، إلى ابتداع فضاء آخر يشعره بنوع من الأمن، وهو يعتقد بعقله الصغير أن اللحاف بديل جيد عن البيت على انعدام الجدران و القوائم ، فهل يغنيه هذا الفضاء الجديد عما هو عليه ؟ .

2– البيت وأثر الوحدة على الفرد:

إننا إذا انطلقنا من منطلقات تتبع المعاني الخفية للبيوت والمساكن، و تتبع الأحاسيس التي ترافقها و تدل عليها ، فإنه يجب بدءً ذي بدء فهم الظواهر المحيطة بها، لأن عملية الفهم تقودنا إلى الوصول إلى نتائج مرضية ، لذا نجد أن تعارض المناهج << و تَبَايُنِ منطلقاتها في تفسير الظواهر الفردية والاجتماعية، إلى اختلاف عميق في فهم هذه الظواهر ذاتها ، و بالتالي بدأنا نقف على إشكالية " الفهم " فهل نصل الى فهم الظواهر بناءً على شروط سيكولوجية ؟ أم أخرى سوسيولوجية ؟ >>[1] ، هنا تَكْمُنُ المشكلة ، فعند تتبعنا للظواهر المحيطة بالبطل في رواية الأيام ، وجدنا تعارضات كثيرة ، فالبيت عند البطل كان على عكس ما كانت عليه البيوت المعهودة ، و هنا تختلف أنواع البيوت التي نراها و أن نعايشها نحن ، << أما بالنسبة للظاهراتي فسوف نصرف إلى البحث عن البذرة الجوهرية و المؤكدة والمباشرة لما يوفره هذا النوع أو ذاك ، هناءة. إن أول مهمة للظاهراتي في كل بيت أن يجد القوقعة الأصلية .>>[2]، فهل وجد طه حسين القوقعة الأصلية في هذا النوع من الفضاء ؟ و هل وَفَّرَ له الهناءة المطلوبة ؟

إننا من خلال ظواهر الحياة المعيشة للبطل ؛ نجد أنه في كل مرة يصطدم بنكسات مصدرها البيت الذي يحل فيه ، حتى و لو توفرت فيه شروط الانفتاحية و دخول الأصوات ، إلا إنه يبقى مصدر اليأس وفقدان الأمل ، << و لكن كيف السبيل الى ذلك و قد ترك أخوه باب الغرفة مفتوحا إلى أقصى غايته ، وهذه أصوات القوم تبلغه . وهذه ضحكاتهم تصل إليه ، و هذه دقات مصمتة تنتهي إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاي يحطم الخشب ليوقد النار ، و كل هذه الأصوات التي تنتهي إليه تثير في نفسه من الرغبة و الرهبة ، و من الأمل و اليأس ما يعنيه و يضنيه ، و يملأ قلبه بؤسا و حزنا >>[3] ، فإذا فهمنا هذه الظاهرة نستطيع تتبع مسار الحزن و الألم الذي تخلفه الغرفة في نفسية البطل ، على الرغم من ترك الباب

[1] – مصطفى شميعة : القراءة التاويلية للنص الشعري القديم ، بين أفق التعارض و أفق الاندماج ، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ، إربد ،ط1 ، 2013، عدد 322، ص 09.

[2]– غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 36.

[3] – طه حسين : الأيام ، ص 98.

مفتوحا ، إلا أن تسرب الأصوات إلى أذن الفتى كان يزعجه ، و السبب في ذلك عدم القدرة على الخروج منها ، بسبب فقدان البصر ، لذلك نجد البيت يتحول بما فيه من حماية إلى مصدر لتحطم النفسية وما يتبعها من آلام، إنها ظلال دقيقة لا يحس بها إلا من عايشها، لذلك فإنه << بالنسبة للظاهراتي فإن هذه الظلال الدقيقة يتوجب اعتبارها التخطيط الأول لظاهرة نفسية ، لأنها – الظلال الدقيقة – ليست زخرفا مقحما و سطحيا .و علينا ، لهذا أن نفسر الكيفية التي نسكن فيها بيتا – مكاننا ذا الأهمية لحيوية – و أن يتم ذلك في توافق مع جدل الحياة ، و أن ينفذ هذا التفسير إلى شرح الوسيلة التي نرسي بها جذورنا يوما بعد يوم ، في " زاوية من هذا العالم " >>[1]، من هنا يتضح أن فهم الظاهرة يقود إلى فهم الإحساس العميق الذي تخلفه الصور حول البيوت ، إننا إذا فهمنا جدل اللعبة بين الأنا و ما ليس أنا ، هناك يتم معرفة مكان الراحة قبل معرفة الكون ، << و هم يعرفون الكون قبل أن يعرفوا البيت ، يعرفون الأفق البعيد قبل معرفة مكان راحتهم . في حين أننا لو درسنا بدايات الصور ظاهرتيا فإنها سوف تعطينا الدليل الملموس لقيم المكان المسكون ، لا الأنا الذي يحمي الأنا >>[2] ، لذلك لو عرف أخو الفتى ما يعرفه البطل، و لو عرف أصحابه ذلك لما حولوا مكان الراحة إلى وحشة دائمة ، و ما تركوا الباب عليه مفتوحا لتصل أصواتهم إليه ، و لو عرفوا مكان الراحة لما حولوه إلى جحيم مطبق ، فلا يحس بالألم إلا من لامسه و سبح في بحره .

تنشأ هنا فكرة الفضاءات المعاشة ، والفضاءات التي يعمرها الناس ، فهل هي البيوت أم لا ؟ إن الخيال هنا هو المتحكم في هذه العملية ، و << ...سوف نرى أن الخيال يعمل في هذا الاتجاه أينما لقي الإنسان مكانا يحمل أقل صفات المأوى : سوف نرى الخيال يَبني " جدرانا " من ظلال دقيقة ، مريحا نفسه بوهم الحماية – أو ، على العكس . نراه يرتعش خلف جدران سميكة متشككا بفائدة أقوى التحصينات . باختصار ، و طبقا لجدل لا نهائي فإن ساكن البيت يضفي عليه حدودا .إنه يعيش تجربة البيت بكل واقعيتها و حقيقتها خلال الأفكار و الأحلام ....>>[3] ، و من ثم فرغم وجود السكان القاطنين بجنب البطل ، و وجود رفيق قريب منه دائما ، إلا أن كل ذلك لم يوفر له أدنى أسباب الراحة، و لم يحقق للبيت معنى الحماية و الدفء ، لذلك نجد البطل يخشى الاصطدام بالناس المجاورين له ، بدل التواصل معهم ، على الرغم من تواجدهم في البيت الواحد ، بل ؛ و يخشى حتى الاقتراب من أخيه الأكبر ، و هنا . و رغم توفر

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 36.

[2] – المرجع نفسه، ص 36

[3] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 36.

أسباب الحماية ، و وجود جدران حصينة ، فإن هذا البيت أضفى عليه اضطرابا شديدا ، وحسرات لاذعة ؛ ذكرته ببيته الأول في القرية ، و حنينه إليه رغم بساطته ، << و كان كل شيء أهون على الصبي من أن يفجأه أخوه ، و هو يسعى مضطربا حائرا فيسأله: ما خطبك ؟ و ما الذي تريد ؟ فكان إذن يرى الخير في أن يبقى في مكانه و يؤثر العافية ، و يردد في نفسه تلك الحسرات اللاذعة التي كان يجدها ، و حسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعا و إيلاما، حسرات الحنين إلى منزله ذلك ، في قريته من قرى الريف >>[1] ، ومن ثم يتبين أن الموطن الأول الذي ولد فيه الإنسان ، هو الحميمية الحقة ، و هو البدائية التي لا يمكن بحال من الأحوال نسيانها ، على كثرة السنين وتباعد الأزمنة ، و ها هو صاحبنا ؛ رغم رحيله إلى المدينة التي كان يحبها ، و استبدال الريف والفقر ، بالرفاهية المزعومة ، إلا أن كل هذا لم يحقق له معنى الفضاء الأليف و ظل صاحبنا يتذكر الماضي الأليف، << .... لأن ماضينا كاملا يأتي ليسكن البيت الجديد . إن المثل القديم الذي يقول " إننا نجلب أوجارنا معنا " يحتمل تنويعات عديدة . إن حلم اليقظة يتعمق إلى حد أن منطقة من التاريخ البعيد جدا تنفتح أمام الحالم بالبيت ، منطقة تتجاوز أقدم ذكريات الإنسانية . إن البيت ، مثله مثل الماء والنار ، سوف يتيح لي في هذا الكتاب استرجاع لمحات من أحلام يقظة تضيئ ذلك الدمج بين القديم جدا و بين المستعاد من الذكريات. وهذه المنطقة التي تنفتح على تاريخ سحيق يرتبط فيها الخيال بالذاكرة ، كل منهما يعمق الآخر .>>[2] ، لذلك فكل الذكريات القديمة ، و الضاربة في العمق ، تُنتشل هنا . دفعة واحدة ، بمجرد ملامستها تخوم نفسية البطل المضطربة ، إنها تتدفق جملة رغم تباعد الأزمنة ، واختلاف الأمكنة، وتنوع الشخصيات، ، هذه هي حياة الصبي إذن ، في بيت كان من المحتمل أن يوفر له أسباب العيش الهادئ ، لكننا نرى في هذا المقطع عكس ذلك ، إننا نرى أن كل شيء يقف حائلا دون وصول السعادة إليه ، تضاف إلى كل هذه الحسرات الظلمة المطبقة، التي أصبح بفعل عقله الناشئ المضطرب يراها رأي العين رغم فقدان البصر.

إن البيت كائن يحتمي به الإنسان من كل عوارض الحياة ، و هو الذي يوقظ في النفس أحاسيس كثيرة ، منها الجميل ، و منها السيئ ، و لكن يبقى البيت ، حامل لواء الحاضر و الماضي ، وحامل لواء الذكريات و الأحلام ، وهو عامل بث الحركية في الزمن ، و من دونه يفقد الإنسان هويته ، و من << ... فإن البيت واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات و أحلام الإنسانية . ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة . و يمنح الماضي و الحاضر و المستقبل البيت ديناميات مختلفة . كثيرا ما تتداخل ،

[1] – طه حسين : الأيام ، ص 99.

[2] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 37.

أو تتعارض ، وفي أحيان تنشط بعضها بعضا .في حياة الإنسان ينحي البيت عوامل المفاجأة و يخلق استمرارية . و لهذا ، فبدون البيت يصبح الإنسان كائنا مفتتا ، إنه – البيت – يحفظه عبر عواصف السماء و أهوال الأرض >>[1] ، و ما دام ذلك كذلك ، وكانت الديناميات تتداخل ، أو تتعارض ، و كان وجود الإنسان من دون بيت كائن مفتت ،فإن صاحبنا كان كذلك ، و حرم من دينامية البيت، بل و تعارضت الموجودات كلها مشكلة حزنا عميقا ينشط الذاكرة من حين إلى حين ، إن صاحبنا تَعَوَّدَ في بيته الأكل منفردا ، وحيدا ، منعزلا ، و ما يفعل ذلك إلا لأن الخوف يَتَمَلّكُهُ من كل الأشخاص المحيطين به ، حتى أهل الدار أنفسهم ، لأنه يخشى أن لا تصل اللقمة إلى فمه جيدا ، أو أنه لا يحسن استعمال الملعقة ، أو لذكريات أليمة تنشط من حين لأخر ، تنغص عليه حياته الصافية ، لذلك نجد أن علاقته بالغرفة كانت منذ الأزل ، فهو يحب أن ينعزل فيها لكي لا يراه الآخرون ، و لا يعرض نفسه لحماقات ، فلولا الغرفة لكان كائنا مفتتا ، مشتتا لا يُلم ، و انعكاس ذلك امتد عبر الزمن اللاحق، وحتى في جَنَبَاتِ السفينة ، فهو يعتزل الناس ، ويهرب من شرورهم إلى الغرفة ، فلا يخالط أحدا ، و لا يأكل أمام الناس ، لأن عامل الذاكرة يحيطه علما بكل ما مضى و انقضى ، لكنه ينشط ذلك الأثر في نفسه من حين إلى آخر : << فقد لزم الفتى غرفته تلك منذ دخل السفينة إلى أن خرج منها . ولم يذهب إلى غرفة المائدة ، وكيف يذهب إليها و هو لا يحسن الحركة في السفينة التي لا تستقر ، ولا يعرف الجلوس إلى موائد الطعام . ولا يحسن استعمال تلك الأدوات التي يستعملها الناس حين يطعمون ، ولا يستطيع أن يأكل أمام المسافرين >>[2] ، نعم إنها وحدة ما بعدها وجدة ، و سجن عميق لا يطاق ، إنها مُجتمعات ومتفرقات تضافرت جهودها ، سعيا منها لتحطيم شخصية البطل و النيل من تطلعاته و أحلامه وانتصاراته ، غير أن صاحبنا كان قويا كفاية ، حيث مَكّنته شخصيته من التغلب على صعاب الحياة، وقهر صعوداتها و عقباتها ، إلا أنه دائما كان بحاجة إلى مساعدة و مساندة من الآخرين ، خاصة من أقرب الناس إليه و هو أخوه ، غير أن هذه الغاية لم تتحقق ، و لم يَحظَ بأي اهتمام ولقد استمرت حياة الفتى على ما هي عليه من الانعزالية و التفرد ، وانفتاح الذكريات على ماض أليم ، كاد يعصف بحياته كلها ، فذكريات البيت و الغرفة ، و ما لهما من حزن وألم ، إلى أن فتح الله عليه بالزواج ، والارتباط بفتاة فرنسية أعانته على التغلب على نوائب الدهر، والاستقرار أخيرا في بيت الزوجية الذي لا بد منه ، لأن شريكة الحياة ، ليست كباقي الناس و المجتمع ، و أن غرفته الآن ليست كباقي الغرف ، إنها الآن توفر له أسباب العيش الهادئ ، بل وأصبح يحس بأن

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان، ص 38.

[2] – طه حسين : الأيام ، ص 259.

الحياة انطلقت من جديد ، بل و فهم أنها ذات قيمة جمالية، و أن الزواج يقنن الحياة و يرسلها جيدة محمية دافئة في البيت الجديد ، لأنه – البيت – << جسد و روح ، و هو عالم الإنسان الأول " قبل " أن يقذف بالإنسان في العالم " كما يدعي بعض الفلاسفة الميتافيزقيين المتسرعين ، فإنه يجد مكانه في مهد البيت .و أي ميتافيزيقيا دقيقة لا تستطيع إهمال هذه الحقيقة البسيطة لأنها قيمة هامة ، نعود إليها دائما في أحلام يقظتنا ، الوجود أصبح الآن قيمة . الحياة تبدأ بداية جيدة ، تبدأ مسيجة ، محمية دافئة في صدر هذا البيت >>[1] ، و من هنا فإن حياة البطل بدأت متعثرة في كل مراحلها ، منذ الصغر و حياة الطفولة ، إلى الشباب ثم الارتباط ، الذي يعول عليه البطل كثيرا ، لأنه يرى في نفسه أن رفيقا و أنيسا يحل معه هذا البيت ، فسيتحول إلى بيت دافئ ، مُسَيَجٌ بالحميمية ، و هو يستقر أخيرا في دار جديدة ، تنطلق منها الحياة ، << و قد أوى الزوجان آخر الأمر إلى دارهما ، و خدعا نفسيهما عما فيها، و اطمأنا إلى ما لم يكن بد من الاطمئنان إليه >>[2] ، و هكذا يخدع البطل نفسه و زوجته بحميمية البيت ، و لكن ليس من بد أن ينصهرا في دار؛ بحثا عن أُلفتها عمرا كاملا ، فكيف في الأخير لا يختار بيتا يعوضه عن كل ما فات ، من أحزان و آلام و مكبوتات عنيفة ، و ذكريات لا يَمْحِيهَا طول السنين ، و تباعد الفضاءات و الأمكنة ، إن أماكن العزلة القديمة التي فرضت الوحدة القاتلة على البطل ، تظل راسخة في ذهنه على الرغم من الارتباط ، واتخاذ بيت جديد ، و غياب الأماكن المأساوية واختفائها من حاضر البطل ، إلا أن الذكريات بقيت في ذهنه ، فلا يستطيع الاطمئنان إليها أبدا ، لذلك فإن << كل أماكن عزلتنا الماضية ، و الأماكن التي عانينا فيها من الوحدة ، التي استمتعنا ورغبنا فيها و تألفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا ، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك . الإنسان يعلم غريزيا أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق ، يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر ، وحين نعلم أن المستقبل لن يعيدها إلينا >>[3] ، وبالتالي فالبطل يعلم علم اليقين أن فضاءات الوحدة، و أماكن العذاب ، حتى و إن استقرت في عقله ، و شيدت مباني وقصورا لا تنهد ، فهي في الأخير لن تُعَاد ، و لن يتكرر مثيلها في المستقبل .

إن مثل هذا البحث يقودنا في أغلب الأحيان إلى استنتاج فضاءات جديدة ، ترتبط بكل ما هو متخيل ، بل بكل ما له علاقة قوية بالذاكرة ، خاصة إذا تعلق الأمر بمراحل الطفولة الأولى ، لأن هذه المرحلة يكون فيها الطفل صفحة بيضاء ، يكتب فيها الزمن كل حوادثه ، بما فيها علاقتنا بالمكان الحميمي

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 37.

[2] – طه حسين : الأيام ، ص 321.

[3] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، 40.

الذي نلجأ إليه كلما اشتدت نوائب الدهر ، و ضاق علينا الكون بما رحب ، فالبيت هو الجسد والروح ، وهو عالم الإنسان الأول، به نكتشف ذواتنا حين يحاصرنا المجتمع ، وحين يتنكر الأهل والأصحاب لنا و لذواتنا.

3- الفضاء ودلالة الانتماء:

إن المكان فضاء رحب ينشد فيه الإنسان ضالته , فضلا على كونه يحمل دلالات<< انتمائية ونفسية ووجدانية و جمالية , و على أرضه تنشأ القيم الإنسانية وهو محور النشاطات والأحداث التي تبدأ بالبيت مكان الألفة . ويتبع ميدانها إلى المحيط الخارجي . فالفضاء الذي يضمه >>[1] ، ولعل أول ممارسة للإنسان في هذا الوجود تبدأ بالبيت مهد الطفولة ، ثم تتفرع منه تفريعات أخرى تُكتشف بمجرد الخروج من هذا البيت ، إلى عالم أكثر اتساعا ، و محيطا أكثر رحابة ، إلا أن فضاء البيت يبقى أكثر تعلقا بذاكرة الإنسان ، فلا نستطيع بأي حال من الأحوال نسيان تلك الحميمية و الألفة التي وفرها لنا البيت في مرحلة الطفولة ،<< و هكذا فإننا لا نعيش تجربة البيت يوما بيوم مثلما نعيش تسلسل قصة . خلال أحلام اليقظة تتداخل مختلف البيوت التي سكناها و نحتفظ بكنوز الأيام السالفة . و عندما نسكن بيتا جديدا ، و تتوارد إلينا ذكريات البيوت التي عشنا فيها من قبل ، فإننا نتنقل إلى أرض الطفولة غير المتحركة كالذكريات البالغة القدم . نحن نعيش تثبيتات السعادة ...>>[2] ، إنها الذكريات التي لا تنصهر أبدا ، حتى إذا فارقنا بيتنا مهد الطفولة ، و سكنا بيوتا أفضل من البيوت الأولى ، إلا أنه يظل يملأ خيالتنا بما وفره لنا من ألفة ، لذلك فالفضاء الذاكراتي << هو الميدان الذي يمد الشاعر بمادة غزيرة ويستدعي الذكريات بما فيها من صور ماضية لسعادة مفتقدة و مواقف أصبحت ضمن الماضي الذي لا يعود , وهذا المكان يمتلك مثيرا لمشاعر الإنسان في حنينه إلى الديار و ملاعب الصبا .و لعواطفه التي تفجر براكين الألم و الحسرة النابعة من الانفعال الصادق في إحساس الشاعر بغربته المكانية >>[3]، وبتتبع مراحل السرد في رواية الأيام نجد طه حسين يحتفظ بذكريات البيت الأول ، و يختزنها لوقت الحاجة ، و نجده يعود إلى الخلف كلما صدمه موقف خارج الدار ، أو ألمت به حادثة محزنة ، فها هو الفتى رغم حداثة سنه ، إلا أنه استطاع معرفة قوة الذاكرة ، و علاقتها بحوادث الطفولة ، و علم أن كل ذكرى جميلة ، يبقى لها وجود على اختلاف الأزمنة ، و تباعد الأمكنة ، و إن كل واحدة تعكس على صاحبتها مرايا مشعة ، سرعان ما تتلاشى و تضمحل ،

[1] – حمادة تركي زعيتر: جماليات المكان في الشعر العباسي، ص269.

[2] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، 37.

[3] – حمادة تركي زعيتر : جماليات المكان في الشعر العباسي، ص 269.

بل و يخرج من الذاكرة الإنسانية كأن لم تكن : << و لكن ذاكرة الأطفال غريبة . أو قل إن ذاكرة الإنسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة ، فهي تتمثل بعض هذه الحوادث واضحا جليا ، كان لم يمض بينا وبينه من الوقت شيء ، ثم يمحى منها بعضها الآخر كان لم يكن بينها و بينه عهد >>[1] ، هكذا هي حياة الإنسان ، و بالأخص حياة الطفولة الأولى ، فإن الذاكرة هناك تستطيع استحضار حوادث بعيدة الأمد ، كان الوقت الذي حدث فيه والآن ، ليس بينهما زمن يذكر ، فالماضي كله يدخل ضمن البيت ، و يعاد على شكل أحلام و الشمس في كبد السماء ، ثم يسترجع وتنفتح أمام الإنسان دفعة واحدة << .... إن ماضينا كاملا ياتي ليسكن البيت الجديد ... إن حلم اليقظة يتعمق إلى حد أن منطقة من التاريخ البعيد جدا تنفتح أمام الحالم بالبيت ، منطقة تتجاوز أقدم ذكريات الإنسانية ...استرجاع لمحات من أحلام يقظة تضيئ ذلك الدمج بين القديم جدا و بين المستعاد من الذكريات . و هذه المنطقة التي تنفتح على تاريخ سحيق يرتبط فيها الخيال بالذاكرة ، كل منهما يعمق الآخر .>>[2] ، و من ثم فإن الفتى يتذكر علاقته بالبيت و كل ما يحويه من أثاث ، وحتى الغرف المحيطة به ، والمجاورة إليه ، << ثم يبلغ الصبي بيته، فيدخل إلى غرفة هي أشبه بالدهليز ، قد تجمعت فيها المرافق المادية للبت ، وهي تنتهي به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة ، قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت ، وهي على ذلك غرفة النوم و غرفة الطعام و غرفة الحديث، وغرفة السمر ، وغرفة القراءة والدرس ، فيها الكتب و فيها أدوات الشاي ، و فيها بعض رقائق الطعام ...>>[3] ، يتذكر الصبي هذا البيت على ضيقه ، و على شبهه بالدهليز ، و إن هذه الغرفة على صغر حجمها ، فقد تجمعت فيها كل الأشياء التي يحتاج إليها، وكانت كما هي غرفة حوت في طياتها ما يمكن أن تحويه جميع الغرف ، فكانت معدة للأكل والشرب ، و كانت قاعة لاجتماع الأصحاب حين حديثهم ، و حتى حين سمرهم ، و بعد التفرق تصبح غرفة للقراءة و الدرس ، و الاطلاع على كل الكتب التي كانت مجمعة أيضا هناك ، و قد حوت أيضا الأدوات التي يتم بها إعداد الشاي ، من موقد و أباريق ، وأواني يبرد فيها الشاي و يشرب ، حتى أنها كانت مجمع بقايا الطعام الذي تَخَلَّفَ فلم يُأْكَلْ ، هكذا هو بيت الصبي الذي لم ينس شيئا منه ، وبقي راسخا في مخيلته ، لم تستطع السنوات الطويلة ، و الأسفار الكثيرة محوه ، إن هذا الحلم الذي يمارس على البطل في يقظته ، هو حلم جميل ، يتدفق أثناء فترات الصمت ، و لكن << حين نواجه فترات الصمت هذه فإن صاحب منهج المسح – التحليلي – سوف يبدأ

[1] – طه حسين : الأيام ، ص 14 – 15.

[2] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 37.

[3] – طه حسين :الأيام ، ص 80.

في إلقاء الأسئلة : هل كانت الحجرة كبيرة ؟ هل كانت العلية مكتظة بالأشياء ؟ هل كانت الأركان دافئة ؟ كيف كانت تضاء ؟ و كيف حقق الإنسان الصمت في هذه الجزاء ؟ و كيف كان يتذوق الصمت الخاص جدا لمختلف أماكن العزلة آلت يمارس فيها حلم اليقظة وحيدا >>[1] ، و بالتالي فإن البطل يعي جيدا ما تعنيه الغرفة بالنسبة إليه ، لذلك أخذ يتذكرها شبرا بشبر ، و ركنا بركن ، ويعدد ما فيها من أشياء ، وما كانت تصلح له هذه الغرفة وأغراضها ، إن كل ذلك أصبح صورا عابرة تتمتزج بخيالات البطل حين يقف و الصمت جنبا إلى جنب ، فيسترسل كل ذلك لحظة بلحظة ، ثم يذكر مجلسه من بين الأشياء كلها ، و يتذكر مكان نومه ، وكيف كان عليه ؟ ثم يشرع في استذكار طريقة نومه في هذا البيت ، << و كان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفا محدودا كمجلسه من كل غرفة سكنها و اختلف إليها . كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة ، يمضي خطوة أو خطوتين فيجد حصيرا قد بسط على الأرض القي عليه بساط قديم و لكنه قيم ، هنالك يجلس أثناء النهار، وهنالك ينام أثناء الليل ، تلقى له وسادة يضع عليها رأسه و لحاف يلتف فيه >>[2].

هكذا هي أحلام يقظة البطل ، يحي بها نهاره ، و قد يُنِيمُ بها ليله الحزين ، و ما يفعل ذلك إلا لمحاولة كتابة الزمن و ما وقع فيه ، و كتابة علاقته بالمكان المتواجد فيه ، و الذي أحبه فتشابهت الغرف كلها بالنسبة إليه ، و لا يتم ذلك إلا بفعل عامل الذاكرة الساكنة فيه ، و التي تسجل له تلك الاستمرارية في حياته كلها لأن << المكان هنا هو كل شيء ، حيث يعجز الزمن عن تسريع الذاكرة . الذاكرة – أية أداة غريبة هي – لا تسجل استمرارية واقعية ، بالمعنى البيرجسوني ، إننا عاجزون عن معايشة الاستمرارية التي تحطمت ، نستطع أن نفكر فيها فقط بمستوى تجريدي خال من الكثافة . إن أجود عينات الاستمرارية المتحجرة الناتجة عن البقاء الطويل في المكان توجد في و عبر المكان : مقصورات اللاوعي ، الذكريات ساكنة ، و كلما كان ارتباطها بالمكان أكثر تأكيدا ، كلما أصبحت أوضح ، إن فعل الذاكرة في الزمن هو فعل كتاب السيرة ...>>[3] ، و بالتالي نجد البطل ، و في استشهاد منه ، يريد استدراجنا بفعل الذاكرة إلى خلق نوع من الاستمرارية بينه و بين نفسه ، و بيننا و بين السرد الذي يرويه ، لأن الذكريات التي عاشها ساكنة في لا وعيه ، يستخرجها كلما تشابهت المواقف ، و كلما حدثت عوارض تذكره بمواقف سبقت، وعايشها قديما ، لذلك فنحن نعرف علاقته بالبيت معرفة تامة ، و نستطيع أن نكون صورا عما عايشه

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 39.

[2] – طه حسين : الأيام ، ص 80.

[3] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 39.

وعاناه ، فالبيت هو الجسد و الروح ، و هو عالم الإنسان الأول ، به نكتشف ذواتنا حين يحاصرنا المجتمع ، وحين يتنكر الأهل والأصحاب لنا و لذواتنا، وهنا يمكننا أن نطلق تسمية الفضاء الذاكراتي ، إنه الفضاء المتواجد فيه ، و هو الفضاء المحبوب الذي بجعل كل الغرف متشابهة ، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بفعل عامل الذاكرة الساكنة فيه ، و التي تسجل له تلك الاستمرارية في حياته كلها ، لأن الكاتب خلق جوا بيننا و بين السرد الذي يرويه ، و نحن حين ذاك نستطيع تكوين صورة واضحة عما عايشه ، لكن بالنسبة للبطل يكون تذكر كل اللحظات التي عاشها ، و هو يقارن بينها وبين حلم اليقظة الذي يعيشه الآن ، فيرى اختلافات كثيرة بين المكانين ، و إن كانت متشابهة ، غير أن الذاكرة تركزها و تبعثها ، و من ثم يصبح << استرجاع لحظات المكان المحصور ، البسيط ، المغلق ، وتجارب المكان المنعش للقلب ، المساحة التي لا تحاول التمدد ، و لكن أشد ما ترغب فيه هو أن تمتلك . وقد تكون حجرة السطح قد بدت لنا في الماضي أصغر مما يجب ، باردة في الشتاء و حارة في الصيف ، ولكننا عندما نستعيدها من خلال أحلام اليقظة ، يصعب علينا أن نعرف من خلال أي نوع من التوفيقية أصبحت حجرة السطح كبيرة و صغيرة ، دافئة و باردة في نفس الوقت >>[1] ، ومن ثم تتشابه المواقف على الحالم ، ويفقد الإحساس القوي الذي جمعه قديما بالبيت الأول ، فلا يستطيع إدراك ما كان عليه حقيقة ، و ينسى ما كانت عليه الحجرة ، أكانت صغيرة أم كان حجمها أكبر مما يتخيل ، هل استطاعت حمل كل الأغراض ، أم عجزت ؟ هل كانت وظيفتها النوم فقط ؟ أم هناك وظائف أخرى لها ؟ كيف كان حالها في الشتاء ثم الصيف ؟ إنها عوارض يصعب على الحالم استيعابها.

4- الهجرة والحنين إلى المكان الأليف:

إن الهجرة و الترحال من أهم العوامل التي تساعد الإنسان على التذكر ، و هما أيضا عاملان أساسيان في توليد الحنين ، و إنه كلما ابتعد الإنسان عن بيت الطفولة ، و انتقل إلى بيت جديد ، فإن ذلك سيؤدي حتما إلى البعد عن موطن الدفء و الحميمية ، و كلما فارق الإنسان بيته الأول الذي تربطه علاقة قوية ، كلما ازداد التذكر و أحلام اليقظة ، و أدى ذلك إلى الإحساس الكبير بالشوق إليه ، و دافع ذلك كله تقطع أوصال المحبة به ، مما يولد الإحساس بالغربة ، لأن النفس دائما تواقة إلى الفضاء الأول الذي ولدت فيه ، وهذا طبع متأصل في بني آدم ، لأن << من علامة الرشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة ، و إلى مسقط رأسها تواقة >>[2] ، وكل فراق و بعد عن مسقط الرأس يولد إحساسا بالحزن والأسى

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان، ص 40.

[2] – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحنين إلى الأوطان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط1، 1982، ص 08.

، خاصة إذا كانت الذكريات القديمة جميلة و رائعة ، ثم يتحول في طرفة عين إلى بيت غريب موحش ، فتنقاد الذاكرة مباشرة إلى الوراء ، لتستحضر أيام السعادة و الهناء في البيت الذي ولد فيه كل واحد منا ، و فتح عينيه عليه أيام الطفولة ، << فالبيت الذي ولدنا فيه بيت مأهول ، و قيم الألفة موزعة فيه و ليس من السهل إقامة توازن بينهما ، إذ هي تخضع للجدل ، فكم من حكايات للأطفال – إن صدقت – تروى عن الطفل الذي ليس له حجرة خاصة به ، ولهذا ذهب غاضبا و جلس في أحد الأركان >>[1] ، ومن ثم فهذه الألفة الموزعة سرعان ما تندثر بمجرد الرحيل ، لذلك نجد الفرد ، و بخاصة المبدع يستحضر ذكريات الماضي التي تربطه بالبيت ، على شكل صور ذهنية صافية ، تجسد علاقته بمكان ولادته ، الذي سكن عمقه البعيد ، فنجده يأنس إليها و إلى ماضيه << و يرعى الفضاء الذاكراتي أكثر التجارب الشعورية ، و يحفظ لها ذكراها عبر أمكنته المتعددة ، التي تثري تجارب الشاعر و تحرك شاعريته ، و تمده بمادة غريزة طيعة لأدواته الفنية التي يسخرها لعمله الخالد ، كما يراعي الحيز الذاكراتي – كجزء من الفضاء –تجارب الشاعر الذاتية ، لاحتماله التأويل على قراءات عديدة >>[2] ، و هذا لا يخص المبدع الشاعر فقط ، بل نجده عند الروائي الفذ ، الذي يحول اللغة من العادية الجارية ، إلى لغة شاعرية خلاقة ، تتوازى فيها المشاعر والأحاسيس عند كليهما، ونجد طه حسين يصف البيت الجديد، بالبيت الغريب، والطريق المؤدي إليه كذلك غريب ، << فهو يسكن بيتا غريبا يسلك إليه طريقا غريبة أيضا ، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر ، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل، وتفتح في وسطه فجوة ضيقة بعد أن تُصلى العشاء >>[3]، فالغربة مبعثها فراق بيت الطفولة، والتوجه إلى بيت جديد ، لذلك نجد البطل يحس بالغربة من أول وهلة صادف فيها هذا البيت ، بل و الطريق المؤدي إليه يختلف عن الطريق القديم الذي ألفه ، و هذا راجع إلى التعلق الشديد بالموطن الأول ، وعدم القدرة على تحمل فراقه ، لذلك نجده يحس بالأسى في داخله ، و يشعر باللوعة على فراق المكان الأليف .

تظل الذكريات الأليفة لاصقة بعقل الفتى ، فهو يتذكر الموطن الأول و يَحنُّ إليه كلما اصطدم بمواقف مشابهة لما كانت عليه في السابق ، و عند تشابه المواقف تعود الذاكرة بالفتى إلى سنين الطفولة الأولى ، و تكون المقارنة بعد ذلك ، وليس البيت وحده مصدر التذكر ، أنما الأشياء التي تقرب إليه ، أو توصل إليه، كالطريق مثلا، أو السلالم التي يمتطيها للوصول إليه ، و نجد البطل في هذه الرواية يصور

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 43.

[2] – حمادة تركي زعيتر : جماليات المكان ، ص 273.

[3] – طه حسين : الأيام ، ص 78.

لنا الطريق الجديد الذي لم يألفه بعد ، و يصور لنا السلم المؤدي إلى بيته الجديد ، << ... حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكانا بعيدا بعينه سمع أحاديث تأتيه من باب قد فتح عن شماله ، فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذي سينتهي به إلى حيث يقيم ...>>[1] ، فهو يعرف هذه الطريق و مقدارها ، و يعرف هذا السلم الذي سيصعد به إلى البيت ، لأنه شبيه بالسلم الذي كان يصعد به العلية ، و يصعد به مع المؤذن إلى حيث يقام الأذان ، لذلك فقد كانت الصورة مشابهة لأيام الماضي ، أيام الطفولة الحلوة ، حيث لا حزن يكدر صفو الحياة ، وبغض << النظر عن ذكرياتنا فالبيت الذي وِلِدْنَا فيه محفور بشكل مادي ، في داخلنا . إنه يصبح مجموعة من العادات العضوية . بعد مرور عشرين عاما ، و رغم السلالم الكثيرة الأخرى التي سرنا فوقها .فإننا نستعيد استجاباتنا " للسلم الأول ، فلن نتعثر بتلك الدرجة العالية بعض الشيء ...>>[2] ، إن كل الذكريات محفورة حقا في ذاكرتنا ، وفي ذاكرة البطل ، لأنه يحاول في كل مرة ربط الماضي بالحاضر ، عن طريق الذاكرة ، حتى ولو مر على الماضي أكثر من عشرين عاما ، و نخربت الذاكرة بفعل المجتمع و عاداته ، وتغيرت التقاليد بعد الرحيل ، غير أن البطل يحاول أن يعطي صورة جديدة لهذا السلم المخالف للأول ، فهو متوسط متراوح بين السعة و الضيق ، و لكن دَرجه كان من الحجر الذي تراكمت عليه الأتربة ، فاستخفى الحجر ، و هذا المقطع يبين ذلك : << وكان هذا السلم متوسطا ليس بشديد السعة ولا بشديد الضيق ، قد اتخذ درجه من الحجر ، و لكن كثر التصعد فيه و الهبوط منه ولم يتعهد بالغسل و لا بالتنظيف ، فتراكم عليه تراب كثيف ، ثم انعقد ولزم بعضه بعضا حتى استخفى الحجر استخفاءً و خيل إلى المصعد فيه و الهابط منه أنه إنما يتخذ سلما من الطين >>[3] ، إن السلم هنا يذكر صاحبنا بالصعود إلى حيث محل الإقامة، لذلك كان أشد التصاقا بالذاكرة ، على عكس الهبوط والنزول إلى الأسفل ، فإنه مختلف اختلافا كبيرا، وهذا راجع لما لهما من مفارقات ، فالأول يوصله بعد الصعود إلى المكان حيث الدفء و الحميمية، والانزواء خلف الجدران ، و الاحتماء من كل عوارض الدهر، أما الثاني فيوصله إلى الأسفل ، إلى القبو ، أو الغرف السفلى التي توضع فيها الأشياء الزائدة عادة ، فالسلالم تتكون من أدراج كثيرة ، لذلك فإن فالصاعد أو النازل منها يعددها ثم ينسى عددها ، و لا تبقى من الذكريات إلا ما أوصلنا إلى بيت الدفء و الراحة ، لذلك << فالسلالم : من واحد إلى ثلاثة أو أربعة ، كلها مختلفة ، إننا دائما نهبط السلم الذي يؤدي إلى القبو، و هذا الهبوط هو ما نتذكره

[1] – ، طه حسين : الأيام، ص 79.

[2] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 43.

[3] – طه حسين : الأيام ، ص 79.

. و ما يميز أحلامنا ، أما السلم المؤدي إلى حجرة النوم فإننا نصعد و نهبط عليه . إنه أكثر استعمالا . ونحن نألفه >>[1] ، و من منا لا يحب حجرة النوم ، ومن منا لا يحب الخلود إلى النوم ، إنه الراحة التامة بعد التعب الخالص ، لذلك تجدنا نتحمل أتعاب الصعود بفرح شديد ، ثم ترتبط ذكرياتنا به أشد الارتباط ، لأن كثرة الاستعمال هي من تبعث الذاكرة ، وتخزنها حتى لا نكاد ننس شيئا منها، ولكن الصبي في الأيام الأولى كان شديد الحرص على القيام في كل صعود، بإحصاء الدرج ، لأنه يمضي به إلى حيث الراحة ، والخلود إلى النوم ، << ومع أن الصبي كان كلفا بإحصاء الدرج كلما صعد في سلم أو هبط منه ، فقد أقام ما شاء الله له أن يقم في ذلك المكان ، وصعد في ذلك السلم و هبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط ، ولم يخطر له قط أن يحصي درج هذا السلم ، و إنما علم بعد أن اتخذه مرتين أو مرات ، أنه صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلا نحو الشمال ليمضي في التصعيد تاركا عن يمينه فجوة لم يَلِجْهَا قط ، ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدي إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذي أقام فيه أعواما طوالا >>[2] ، هكذا هي ذكريات البطل في رحلة بحثه عن الهوية ، و هذه هي علاقته بالبيت ، السلالم المؤدية إليه ، فهو في حالة صعود دائم إليه، يحاول في كل مرة إحصاء عدد الأدراج المكونة للسلم، إلا أنه لم يستطع عدها رغم طول السنين، ومهما يكن من أمر ، يبقى البيت الأول موطن الدفء ، هو حامل الذكريات جميعا ، و مرسلها ، و بالتالي فبعد السفر الطويل ،و توفر أسباب الراحة للفتى ، إلا إننا نجده في سيرته يشتاق إلى بيت الطفولة ، مهد الدفء و الاحتماء ، فكل الطرق التي سلكها ، والسلالم التي صعدها ، والبيوت التي سكنها ، كلها لم تثن عليه ما أثنى عليه بيته الأول ، لأن << البيوت المتعاقبة التي سكناها جعلت إيماءاتنا عادية ، و لكننا نندهش حين نعود إلى البيت القديم بعد تجوال سنين عديدة ، أن نجد أدق الإيماءات و أقدمها تعود للحياة دون أدنى تغير . وباختصار . فإن البيت الذي ولدنا فيه قد حفر في داخلنا المجموعة الهرمية لكل وظائف السكنى . إننا رسم بياني لوظائف سكنى ذلك البيت المحدد ، وكل البيوت الأخرى هي تنويعات على نفس اللحن >>[3] ، فالسكن الأول هو مهد السكنات الأخرى، و هو حاميها حين نحتمي به، فالبطل في رواية الأيام ، نجده يستنجد ببيته الأول ، رغم إن بيته لم يكن كالبيوت الأخرى، لأنها كانت أحسن منه ، غير أن حميميته دفعته لتذكره بعد سنوات الغياب ، فهاهو يحن إليه بشوق كبير ، ويود العودة إليه عن طريق الذاكرة ، أليس هو المكان الاستذكاري بصدق ؟ ألم يجد فيه الدفء والحنان مذ فتح عينيه

[1] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 52.

[2] – طه حسين : الأيام ، ص 79.

[3] – غاستون باشلار : جماليات المكان ، ص 43– 44 .

؟ أليس هو من وفر له الحماية ، وأسباب الراحة ؟ و ها هو يبعث زفرات و آهات كثيرة حينما يتذكره بعد السفر ، << ... و يردد في نفسه تلك الحسرات اللاذعة التي كان يجدها ، و حسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعا وإيلاما ، حسرات الحنين إلى منزله ذلك ، في قريته تلك من قرى الريف ...>>[1]، إن هذه الحسرات تأتيه على شكل ذكريات جميلة ، ذكريات يعود بها إلى الماضي لعله يخفف من حدة الفراق، وهنا تنفتح أبواب الخيال على مصرعيها، وتنطلق أحلام اليقظة مسترسلة حوادث الماضي ومواطن الدفء و الحميمية.

خاتمة:

وصفوة القول؛ فإننا نصل من خلال هذه الدراسة مجموعة من النتائج أهمها:

- إن الفضاءات الانعزالية هي أماكن الوحدة التي يعيشها الفرد، وقد كان الفضاء الانعزالي الأول هو فقدان البطل لبصره.
- لقد كان تأثير الفضاء الانعزالي شديد الوقع على البطل؟
- لقد أثر فيه سلبا مع بداية الحياة، ثم انقلب إلى الإيجاب في النهاية.
- لقد تحول البيت وهو الفضاء الأليف إلى مكان موحش مظلم في حياة البطل.
- اثر الهجرة كان كبيرا على طه حسين، مما دفعه إلى إعمال فكر الذاكرة والاشتياق إلى المكان الأليف.

قائمة المصادر والمراجع:

– المصادر:

1- طه حسين : الأيام ، مركز الأهرام للترجمة و النشر ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، ط1992،1.

– المراجع:

1- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : الحنين إلى الأوطان ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ط1، 1982.

2- حمادة تركي زعيتر : جماليات المكان في الشعر العباسي ، دار الرضوان ، عمان ، ط 1، 2013.

3- غاستون باشلار : جماليات المكان ، تر ، غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط1 ، 1984.

4- مصطفى شميعة : القراءة التأويلية للنص الشعري القديم ، بين أفق التعارض و أفق الاندماج ، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ، إربد ،ط1 ، 2013، عدد 322.

[1] – طه حسين : الأيام ، ص 99.